

الفصل الرابع

شخصيات هوميروس ١ - الآلهة

كان آلهة اليونان يختلفون عن البشر في أنهم خالدون ، تراهم دائماً في عنفوان الشباب لا يبلغهم الكبر ، الذي كانوا يكرهون لأنه مملوء بالمتاعب والأشجان ، ^(١) وكانوا ينحدرون من جنس خاص له صفات مميزة : وجوه جميلة متألقة ، وقوام رشيق ومشوق وهيئة جليلة رهيبة ، وقوة خارقة وذكاء نادر ^(٢) . وكانوا يقيمون فوق ذرى الأولومپوس في سماء صافية مشرقة لا تعصف بهاريج ولا ينزل بها مطر ^(٣) ، يعيشون في قصور فخمة بناها هيفايستوس من الذهب والمرمر ، وكانوا يتركونها أحياناً لينزلوا على الأرض أو ليذهبوا إلى قمم إذا ^(٤) . وكانوا يقضون أوقاتهم في بشر وسرور لا تعكر صفوهم الحمووم ولا تصيبهم الأحزان ، ولا يهتمون بمشكلات البشر ولا يكثرئون لحالهم ، وإذا تناقشوا في أمر من أمورهم أو اختلفوا من جرائمهم لا يطول نقاشهم ولا يدوم خلافهم لأنهم أخوة متحابون وأصدقاء متآلفون . ولقد وصف هوميروس المحبة التي تؤلف بين قلوبهم

(١) النشيد الهوميرو لأفروديتا : ٢٤٤ .

(٢) النشيد الهوميرو لديميتر : ٢٧٥ وما بعده ؛ الأوديسا : ٦ : ١٠٧ .

(٣) الأوديسا : ١٥ : ٥٢٣ .

(٤) الإلياذة : ١١ : ١٨٢ .

وتخفف من حدة التوتر بينهم ، فروى لنا في نهاية النشيد الأول من الإلياذة ان سيد الأرباب وعد أم أخيلئوس بالانتقام ممن أساءوا إلى ابنها وأن هيرا استاءت من تصرفه ولامته عليه ، ولكنه نهى وأغلاظ لها القول ، فسكتت وكظمت غيظها ، وغضب الأرباب وثاروا من أجلها ، غير أن هيفايستوس تدخل في الأمر ووفق بين والديه . فخل الوئام محل الخصام وساد الصفاء وأشرقت الوجوه وعلا الضحك ، ثم أقيمت مأدبة فاخرة بهيجة ترددت فيها الأغاني وعزفت الألحان حتى أرخى الليل سدوله ، وعندئذ ركن الآلهة إلى الراحة والمهدوء ، وذهب زيوس مع زوجته إلى فراشه الناعم الوثير . ولقد قام هؤلاء الآلهة بدور خطير في أشعار هوميروس ، فكانوا يتدخلون في كل شيء يؤيدون الأبطال أو يخذلونهم ، فإليهم كانت تعزى الانتصارات والهزائم لأنهم كانوا يوجهون القواد ويتحكمون في تصرفاتهم ، يزجون بهم إلى حروب لا تنتهى ، فزيوس هو الذى يرسل إريس ، إلهة الشقاق ، إلى المعسكرات لتثير الجند وتحفزهم على القتال ، (١) وآريس ، إله الحرب ، هو الذى يشرف على المعارك ويراقب سيرها ويخضعها لأهوائه ونزواته ، (٢) .

وكان يطيب لهؤلاء الآلهة أن يتجلبوا ليخدعهم أو ينصحوهم أو ينشروا الفضيلة بينهم (٣) . وهكذا نرى زيوس يأمر إله الأحلام بالذهاب إلى أجائمنون ليضله ويسخر منه ، فيتوجه الإله إلى خيمة القائد ويظهر له في صورة صديقه نستور يحثه على القتال ويغريه بنصر وهمى لا يتحقق (٤)

(١) الإلياذة : ١١ : ٥ — ٦ .

(٢) الإلياذة : ٥ : ٨٣١ .

(٣) الإلياذة : ١٧ : ٤٨٥ — ٤٨٧ .

(٤) الإلياذة : ٢ : ١ — ٤٠ .

ونرى أثينا تتجلى لتليماخوس في شكل منتور وتراقفه في رحلة لتدلل له الصعاب التي تصادفه (١). ومع أن الآلهة كانوا يختلفون عن البشر في طبيعتهم لكنهم كانوا يتصفون بكثير من صفاتهم. فكانوا يحبون الولايم ويكثر من المسآب ، يسرفون في الطعام والشراب ويتهافون على اللهو والمجون ، ينساقون وراء شهواتهم ويستسلمون لغرائزهم ، وكان منهم قساة لا يرحمون وطغاة ظالمون .

وكان زيوس سيد الأرباب ورئيساً لمجلسهم ، وكانوا يخافونه ولا يحترمونه ، ولكنهم يطيعون أوامره لأنه أقواهم وأشدهم بأساً ومع أن كلمته كانت العليا وطاعته واجبه إلا أنه كان يخضع بدوره لقوة القدر (٢) (moira) ويستسلم لقضائه الذي لا مرد له ، وكان زيوس يستشير في كثير من الأمور ويخضع لمشيئته ، فهو الذي كان يقرر مصير الجيشين المتحاربين وهو الذي قضى بموت هكتور ومنع زيوس من انقذاه رغم عطفه عليه (٣) ، وهو الذي أمر بوسيدون أن يعفو عن أوديسيوس ليعود إلى وطنه (٤) .

وأشهر أرباب الأولومپوس عند هوميروس ، هيرا ، بوسيدون ، آريس هيفايستوس ، ديمتر ، أبوللون ، أرتيمس ، أثينا ، افروديتا ... ونكتفي بالكلام عن اثنين منهما فقط : أبوللون وأثينا (٥) .

(١) الأوديسا : النشيد الثالث كله تقريباً .

(٢) ولو أن هوميروس أحياناً يعتبر زيوس والقدر شيئاً واحداً ويعزو إليهما نفس الاختصاصات ، الإلياذة : ١ : ٥ : ٥ : الأوديسا : ١١ : ٥٦٠ .

(٣) الإلياذة : ٢٢ : ٢١٣ .

(٤) الأوديسا : ٥ : ٢٨٨ — ٢٨٩ .

(٥) اخترنا ههنا لهما لبادورأهما في الإلياذة والأوديسا ولانهما من أشهر الآلهة وأخطرهما شأنًا .

أما أبوللون فكان أعظم الآلهة بعد زيوس ، كان يشرق على الكون وينيره ، وكان يقيم مع ربّات الشعر ويرأس ندواتهن ، يعزف على القيثارة ويلحن الأنغام ، يعالج المرضى ويشفيهم ، يعلم الغيب ويلقن النبوءات . فهو الشمس والنور ، وهو خالق الشعر والموسيقى وهو إله الطب وعلام الغيوب .

كان يبدو دائماً في عنفوان الشباب ، بهي الطلعة ، رشيق القوام مفتول العضلات قوى البنيان ، تغنى هو ميروس برجولته فوصفه بأنه أقوى الآلهة وشبه صوته بالرعد وقال إن أبطال اليونان كانوا يخافونه ويفرون أمامه عند أسوار طرواده حيث أمطرهم وابلاً من سهامه القاتلة وأنزل عليهم طاعونا فتكا أهلك ألافاً من رجالهم وأضعفهم أمام أعدائهم الذين ناصرهم ودافع عن قادتهم وضمّد جراحهم ووقف إلى جانب بطلهم هكتور وتفانى في مساعدته وحاول إنقاذه من الموت ، ولكنه فشل في التغلب على مشيئة القدر .

ولكن أبوللون كان يكره الحرب بطبيعته ^(١) لأنه لم يخاق لها ولكنه وجد لينفع الناس فاخترع لهم الآلات الموسيقية وعلمهم العزف عليها ، وكان يحب الموسيقى ويمجد عزفها لدرجة فائقة ، فكان يسحر الناس بفنه ويؤثر على الطير بأنغامه ويحرك الحجر بالحانه . ^(٢)

(١) الأمر الذي جعل بعض النقاد يقللون من شأنه في خوض معاركها ويتهمون به أحياناً

بالجبن في ميادينها ، انظر : Robert (F.), Homère, p. 135

(٢) الإلياذة : ١ : ٦٠٣ : ٢٤٤ : ٦٣٠ .

وكذلك أطلع الناس على المستقبل وكشف لهم أسرار الغيب ، فكانوا يحجون إلى معابده ليستشيروه في شئونهم الخاصة والعامة ويطلبوا إليه حلولاً لمشكلاتهم ، فكان يجيبهم على لسان كاهن (أو كاهنة) من كهنته ينطق برب الإله ويفسره لهم . وكان معبد دلفي أشهر معابد أبوللون ، يفد إليه اليونان من مختلف الأقطار يعرفون منه نبوءات خطيرة كثيراً ما أسدت لليونان نصائح سياسية جليلة وقررت مصير رجالاتهم .

وكان لأبوللون رسالة سماوية أخرى وهي معالجة الأبدان وتطهير النفوس ، فكان يشفى المرضى من عللهم ويظهر نفوس المذنبين من آثامهم بأن يساعدهم على التكفير عن ذنوبهم ويهديهم الصراط المستقيم وينقذهم برحمته من عذاب الضمير .

أما أثينا فكانت ابنة زيوس العزيرة ، انبثقت من رأس أبيها تحمل درعها وأسلحتها الذهبية وتلوح بحربتها الحادة اللامعة ، وكان ميلادها حدثاً رهيباً فزلزت الأرض واهتزت السماء وسجد الآلهة خاشعين لرمز الظهر والعفاف ، إلادة الحكمة والذكاء ، ربة الشعر والفنون ، خالقة الناي ، نصيرة العلم والأدب ، بالاس أثينا ، أحب بنات زيوس إليه ، خصها بقراءة الغيب ووهبها القدرة على إطالة حياة من تشاء من البشر . بالاس أثينا الإلهة الباسلة التي كانت تشترك في المعارك وتحارب في الصفوف الأولى (promachos)

نراها في الإلياذة إلى جانب اليونان توفق بين زعمائهم وتجمع شملهم ، وكلما خارت قواهم وفترت هممتهم نفخت فيهم من روحها المتأججة وملائتهم حماسة ووعدتهم بالنصر المبين ، وكانوا يعملون بنصيحها ويستأنفون القتال ، وكانت بدورها تخوض معهم المعارك وتتجلى لقوادهم في أخرج المواقف

وتشد أزرهم وتنصرهم على أعدائهم ، فتجلى لديوميديس في ساعة رهبة وأمرته بمواجهة آريس والصمود له ، فصمد البطل وظلت تشجعه حتى رمى الإله بسهم نافذا خرق جسمه وأذل كبريائه . ولم تكف أثينا بهذا النصر بل أصرت على ملاقات آريس بنفسها ، والحقت به هزيمة أخرى في معركة الآلهة^(١) لأنها كانت تذكره هذا الإله المجنون الذي لا يثبت على حال ،^(٢) « آريس الذي يفكر في الحروب والمعارك^(٣) ويسبب الخراب والدمار^(٤) ولا يعرف الحق أبداً^(٥) » .

أما هي فكانت لا تدخل الحروب حبا فيها ولكن دفاعا عن المدن وحماية لأهلها ، كانت تنصر الحق دائما وتقف إلى جانبه ولا أدل على تمسكها به وتأيدها له من الدور الخطير الذي قامت به في الأوديسا . لقد بذلت قصارى جهدها في نصرة المظلوم ومحو اليأس من نفسه وبعث الطمأنينة إليه وتقوية الأمل عنده والأخذ بيده ودرأ الأخطار عنه ، فعاونت تليماخوس وأمدته بالسفن والمؤن وشجعته على الرحيل للبحث عن أبيه ورافقته في رحلته ، وتجلت لأمه وطمأنتها عليه ، وماعدت أباه في الرجوع إلى إيثاكا واشتركت معه في القضاء على أعدائه ونشر السلام في بلاده .

ولاعجب في موقفها من بطل الأوديسا لأنه كان يشبهها كما اعترفت بذلك في حديثها معه إذ تقول : « إنك تفوق الناس والآلهة في المكر والدهاء إيا من

(١) الإلياذة : ٢٠ : ١ — ٧٤ .

(٢) الإلياذة : ٥ : ٨٣١ ، ١١٩ .

(٣) الإلياذة : ٥ : ٨٩٠ .

(٤) الإلياذة : ٤ : ٤٣٩ .

(٥) الإلياذة : ٥ : ٧٦١ .

تحب الاكاذيب ولا تكف عن الحيل ، ألا تريد ، حتى في إيثاكا ، أن تضع حدا للخداع والتزوير والكذب الذى يتأصل فى نفسك ويستولى عليك ؟ ولكن دعنا من هذا الالتواء ، فكلانا بارع فى الكذب الذى ينفع ولا يؤذى ، فانت أرجح الناس عقلا وأفصحهم لساناً وأنا أكثر الأرباب ذكاء وأخصهم خيالاً وأقواهم ابتكاراً . أولم تعرفنى بعد ؟ بالاس أثينا بنت زيوس التى تساعدك وتنقذك من المصائب ^(١) ،

ولم تقتصر مساعدتها على الأبطال فقط بل كانت ترعى المدن وتحميها ، وكانت أثينا عاصمه اتيكا ، أحب بلد إلى قلبها ، تنافست مع بوسيدون على تسميتها ، ولما فازت عليه سميت المدينة بأسمها ، فاصبحت هذه مركزاً رئيسياً لعبادتها ، شيدت لها المعابد ^(٢) الرائعة ، وصنعت لها التماثيل الجميلة ^(٣) واقامت لها الحفلات العديدة والأعياد العظيمة ^(٤) .

(١) الأوديسا : ١٣ : ٢٩١ وما بعده .

(٢) أروعها البارثون أى معبد العذراء .

(٣) أشهرها تمثال ارتفاعه ٣٩ قدما صنعه فيدياس من الذهب والعاج .

(٤) البانأثنيا الكبرى وكانت تقام مرة كل خمسة أعوام والبانأثنيا الصغرى وكانت تقام

مرة كل عام .

٢ - الأبطال

رأينا أن هوميروس ، عند ظهوره ، وجد تراثا هائلا من الأناشيد والمقطوعات استمد منه موضوع قصائده ونقل عنه كثيرا من أبطاله ؛ وسواء أكان هؤلاء الأبطال أشخاصاً حقيقين قاموا بأدوار تاريخية أم كانوا مجرد أبطال خرافيين ابتكرهم الخيال الشعبي ^(١) ، فلقد عرفهم الشعراء من قبل وصوروهم في أناشيدهم ثم جاء هوميروس وأبقى عليهم وحافظ على مظهرهم الخارجى ولكنه غير صفاتهم تغييرا وبدا تصرفاتهم تبديلا ليقوموا بأدوار لا نرى لها مثيلا إلا فى الملاحم الخالدة مثل الإلياذة والأوديسا .

ويجدر بنا ، قبل الكلام عنهم ، ان نشير إلى أن كلمة بطل كانت لاتعنى مطلقا أن صاحبها يشبه الآلهة أو يتصف بقوة سماوية أو يتميز بصفة نادرة بل كانت لقباً يطلقه الشاعر على اليونان والطوراديين دون تمييز ، ويصف بها كل من يتقن عمله ويبرع فى فنه ، فهاليثرسيس (Halithersès) بطل فى العرافة ، وديمودوكوس بطل فى الإنشاد ، والجنود كلهم أبطال ، فالكلمة لا تحمل أى معنى من معانى التقديس أو التأليه ولا تدل على أنه كان لصاحبها هيكل خاص يعبد فيه أو كانت تقام له عبادة حول قبره شبيهة بعبادة الموتى .

حقاً إن اليونان عبدوا أبطالهم وقدموهم ولكن هذه العبادات وجدت

Leaf (W.), Homer & History, London, 1915, PP.1-35. (١)

قبل هوميروس بوقت طويل ثم اختفت في العصر الهومري وظهرت بعد ذلك بعدة قرون^(١) وهكذا مرت عبادة الأبطال بأطوار عدة . فبعدهم اليونان في عصور ما قبل التاريخ ثم زالت عنهم صفاتهم المقدسة عندما ارتقى التفكير العلى وظهرت الفلسفة في أيونيا الزاهرة حيث عاش هوميروس وصورهم تصويراً يتفق مع أفكار معاصريه . ولما خلدت الملاحم أعمالهم وذاع صيتهم كان من الطبيعي أن يعود اليونان لعبادة أبطالهم لأنهم كانوا كسائر الناس في كل زمان ومكان ، يميلون إلى تأليه أبطالهم بعد الموت .

ومهما يكن من أمر فإن اختلاط الآلهة بالأبطال عند هوميروس لايزيل الفروق بينهم ، وكفى أن أرباب السماء خالدون وأن أهل الأرض زائلون وبذلك لا يتشابهون أبداً ،^(٢)

ويعتبر أخيليوس أعظم الأبطال جميعاً ؛ قام بأهم دور في الإلياذة وكان مسئولاً عن كل ما حدث فيها : عن الأحزان التي انتابته والخسائر التي نزلت بالفريقين المتحاربين . فهو أهم أشخاص الملحمة وأشجع أبطالها ، لا مثيل له ، بدون أنه لا يستطيع اليونان إحراز النصر ، عندما غضب أسرعوا إلى استرضائه ، ولما اعتزل أحسوا بحاجة ماسة إليه ، إنه محور الإلياذة . عنده تتجمع خيوطها وحوله تدور حوادثها وبفضله يزداد دائماً تماسكها وتقوى وحدتها،^(٣)

ولقد نجح هوميروس في تصويره تصويراً يليق بدوره العظيم فجعله

(١) Robert, Homère, p. ١٤٥.

(٢) Leat, op. cit., p. 11.

(٣) Symonds (J.), The Greek Poets, Vol., I. p. 92.

يشعر ببطولته ويعتز بنفسه ولا يقبل الإساءة ، اتخذه مثالا للجندى الشجاع الذى أحب الحرب فاستولت على افكاره وملأت كل حياته فلم يفكر فى الزواج ولم يتعلق بأفراد أسرته . ترك أباه فى سن الصبا وغاب عنه وقتاً طويلاً . ولم يحن إلى أمه لأنها لم تكن امرأة كسائر الامهات بل كانت حورية مقدسة لا تحتاج إلى عطفه وحنانه ، فهو على النقيض من غريمه هكتور الذى كان يحب زوجته وابنه ويبجل والديه . كان أخيليوس لا يعرف إلا معسكره ولا يعطف إلا على حارسه فوينكس ولا يحب إلا صديقه باتروكلوس الذى كان يقاسمه الهموم ويشترك معه فى القتال ، وكان حساساً سريع التأثر شديد الغضب ، عندما أهانه أجائمنون أصر على الانتقام منه وفكر فى قتله لولا أن تدخلت أثينا وثنته عن عزمه فكظم غيظه وانسحب إلى خيمته وترك قائد اليونان يكفر عن خطيئته . ومرت الأيام وتغيرت نظرتة إلى الحياة ، فأصبحت الحرب لا تستميله والمجد الحربى لا يغريه والغنيمة لا تستهويه والهدايا لا تؤثر فيه لأن الحرب ، فى رأيه ، غرم دائماً . غذائهم لا تعادل أخطارها وأرباحها لا تعوض حياة جندى واحد ، فالمال من السهل جمعه لكن الروح إذا فارقت صاحبها لا تعود اليه أبداً^(١) ، إذن يجب رد الرسل خائبين وعدم الاستجابة اليهم ورفض هداياهم ، لأنه متأكد من سلامة موقفه فلا لوم عليه إذا امتنع عن القتال أو رحل عن طرواده ، لكنه يفضل البقاء ليرى اليونان وقد أملت بهم المصائب وأزلتهم الهزيمة ، وهذه نقطة سوداء فى موقفه . فكيف يشاهد القتل والجرحى من مواطنيه ويبقى فى خيمته ؟ لقد تحجر قلبه وجمدت عيناه فاستحق لوم باتروكلوس الذى أخذ يبكى خجلاً من تصرفات صديقه .

(١) الإلياذة : ٩ : ٤٠٦ وما بعده .

عندئذ يتغير الموقف تغيراً تاماً لأن البطل كان يحبه أكثر من أبيه^(١) ولا يستطيع أن يرفض له طلباً ، فسمح بالاشتراك له في المعركة وأعطاه درعه وأسلحته وحث جنوده على القتال تحت قيادته ودعا زيوس أن ينصره ويرده إليه سالماً ، لكن الإله لم يستجب لدعائه وجمعه في حبيبه الذي لم يعد إليه أبداً ، وكان موته صدمة كبرى أنست البطل أساءة أجاممنون وحملته على الصفح والغفران ودفعت به إلى ساحة الحرب^(٢) ليقتل هكتور^(٣) وسرعان ما انقلب إلى وحش كاسر لا يشبع من سفك الدماء ولا يرحم من يراه ، يقتل كل من يصادفه حتى الأعزل الذي لا يهاجمه . لقد ثارت ثورته إلى درجة الجنون فلم تبدأ بعد قتل هكتور بل استبدت به وجردته من إنسانيته فأخذ ينكل بالجثة إمعاناً في الانتقام من صاحبها . لقد أصبح في حالة يرثى لها ، ضاق بالحياة وصار لا يكثر بأى مجد فيها ، احتراه وجوم شامل واستولى عليه صمت عميق ، ثم بدأ يفبق ويرجع إلى رشده شيئاً فشيئاً فعاد إلى إنسانيته وكف عن التنكيل بغيره وأكرم برياموس واحترم شيخوخته ورد إليه جثة ولده العزيز وعندئذ هدأت نفس أخيليوس هدوءاً تاماً فوافق على عقد هدنه ليتمكن الطرواديون من تشييع بطاهم المغوار .

وبذا تنتهى الإلياذة التى يمكن أن نسميها « ماحمة أخيليوس » ، لأنه

(١) الإلياذة : ١٩ : ٣٢١ وما بعده

(٢) لذا وصفه دانتي في الجحيم بأنه البطل « الذى أرجعه الحب آخر الأمر إلى ساحة الوغى »

(٣) رغم تحذير أمه التى قالت له : « إذا قتلت هكتور فسوف تاتى حتكفك بعد وقت قصير » . — الإلياذة : ١٨ : ٩٤ — ٩٥ ؛ والسكته رحب بالموت بعد مقتل حبيبه ورد قائلاً : « فلأمت فى الحال مادمت لم أنقذ صديقى ، لأمت ما دام قد ملك » . — الإلياذة : ١٨ : ٩٨ وما بعده .

يقوم فيها بالدور الأول ولأنها تصف عواطفه وانفعالاته ، تصف غضبه من أجاممنون وحبه لپاتروكلوس وحزنه عليه وانتقامه له وهدوه نفسه بعد إشباع رغبة الانتقام العاصفة .

تلك شخصية أخيليوس كما صورها هوميروس نموذجاً لشباب اليونان الباسل الذين دمروا طرواده لتبقى مثلاً لشعبهم بفأخرون به غيرهم ويقتفون أثره كما فعل الإسكندر الأكبر الذى اعتاد أن يحمل معه نسخة من الإلياذة ، لأنها كنز يفيض بجميع الفضائل الحربية ، . وعندما وصل إلى سهول طرواده زار قبر أخيليوس وجرى عارياً حوله وقدم القرابين بمجيدا لذكره . وكان القائد الشاب يشبه أخيليوس فى قوة عواطفه وإنفعالاته ، فكان عنيفا فى حبه وكان عميقا فى حزنه ، أحب صديقه هيفايستيون (Hephaestion) حبا بالغا ، فلما مات أعلن عليه الحداد العام وأمر بذبح قبيلة بأسرها وتقديمها قربانا لروحه وامتنع عن الطعام والشراب وكف عن النوم ، ثم احتفل بتشييعه على طريقة أخيليوس فأقام الطقوس الدينية والحفلات الرياضية وقدم القرابين . وكان الاسكندر كريما مع أعدائه يحترمهم ويعاملهم بالحسنى ، فرحب بـزوجة داريوس وبناته كما رحب أخيليوس بوالدهكتور .

تأثر القائد المقدونى إذن فى كل تصرفاته بما ورد فى الإلياذة عن بطال اليونان الذى اهتم به الشاعر اهتماما بالغا وأسهب فى تحليل موافقه وجعله مثلاً أعلى للمحاربين يقارن به جميع الأبطال خاصة هكتور وأجاممنون .

هكتور^(١) جندي شجاع لكنه يختلف عنه في كل شيء ، فهو يحارب دفاعاً عن طروادة لاجباً في القتال ، يحارب لانقاذ وطنه وأسرته التي تطل عليه من فوق الأسوار وتفكر فيه دائماً كما يفكر فيها . أما أخيليوس فكان يقاتل بعيداً عن بلده تفصله عنه دجبال شاهقة وبحار واسعة صاخبة^(٢) ، لذا كان عبوساً قاسي القلب لا يرق إلا لبارزكلوس ، لكن هكتور كان يعيش وسط أهله وخلانته الذين يبادلونه حباً بحب ، يذهب ، بعد كل معركة ، ليلاطف زوجته ويداعب ابنه أو ليزور هيلينا الحزينة ويواسيها في عزاتها لأنه كالذا قلب رحيم يفيض رقة وحناناً ، وكان أقل جسارة وإقداماً من خصمه ، فلم يجرؤ على مواجهته مطلقاً ولم يسيطر على المعركة إلا بعد أن انسحب منها ، فلما عاد إلى القتال ثانية ، ارتعدت فرائصه . لكن الدفاع عن الوطن واجب مقدس يفرض على هكتور ملاقاته العدو ومقاومته حتى ولو كانت يداه من نار وبأسه من حديد^(٣) ، فليذهب إذن وليقف في وجه أخيليوس ولكن عندما يراه مقبلاً لا تخور عزيمته ويفر خائفاً ، ثم يسترد قواه ويصمد أمامه حتى يموت لقد كان شهماً نبيلاً بقي يفكر في شعبه وأهله حتى النهاية فطلب من قاتله أن يسلمهم جثته وأخبره أنه كان يفعل ذلك لو اتصر .

ومع أن هكتور كان أقل شجاعة وبأساً من أخيليوس إلا أنه كان قائداً

(١) لم يهتم هوميروس بتصوير أحد من الطرواديين اهتمامه بهكتور فاكتفى بذكر أبطالهم الآخرين (أيتياس ، سارپدون . . الخ) من غير دراسة أو تحليل . ويرجع ذلك إلى حرصه على إرضاء مستمعيه من اليونان وخوفه من خالق صور مكررة تشبه الشخصيات اليونانية . انظر . Bowra, op. cit., p. 208.

(٢) الإلياذة : ١ : ١٥٧ .

(٣) الإلياذة : ٢٠ : ٣٧١ — ٣٧٢ .

ممتازا قادرا على قيادة الجند وتشجيعهم ، يملأهم حماسة ويدفعهم إلى القتال
يؤمنهم عندما يستحقون الثناء ويب ويستشيرهم ويعمل بنصيحتهم ^(١) ،
أما اخيليوس فلم يكن قائدا ماهرا لأنه كان ينهمك في المعركة .
وينصرف عن كل ما عداها ، يفكر في النصر من غير أن يرسم الخطط
أو يحفز الهمم .

وكان هكتور يختلف عنه أيضاً في دينه وتقواه ، كان يؤمن بالآلهة
ويحرص على استرضائهم ، لا يضحى لهم إلا بعد أن يتطهر ولا يقرب
معابدهم إلا بعد أن يغتسل ^(٢) فإذا تشكك في نبوءة سماوية ، فإنه لا يفعل
ذلك لأنه لا يصدق ولكن لأنه يثق بزيوس ثقة عمياء ^(٣) .

وكذلك أجا ممنون كان يختلف عن اخيليوس ، فمع أنه كان قائداً
عظيماً إلا أنه لم يكن محارباً من الطراز الأول مثل ابن باريس ، إنه كان من
نوع هكتور ولو أن هذا كان يفوقه في فن القيادة ، ذلك لأن القائد انطروادى
كان يقود جيشاً مناسكا يدافع عن الوطن ضد عدوان أثيم ، وهذا أسمى
هدف كان الطرواديون يريدون تحقيقه ، أما اليونان فكانوا لا يؤمنون
بحرب يخوضونها ويصلون نازها من أجل زوجة فاتنة غادرة ، وهذا الشعور
كان يقلل من حماسهم ويضعف من صفوفهم . لذا كانت مهمة أجا ممنون
شاقة ومسئوليته جسيمة ، تتطلب مجهودا مضنيا كان يفقده السيطرة على
أعصابه فيختل توازنه ويستبد بأتباعه أو يخضع لأهوائه ويركب رأسه
ويتغطرس مع زملائه .

(١) الإلياذة : ٦ : ٣٣٣ : ٣ ، ٥٩ .

(٢) الإلياذة : ٦ : ٢٦٦ .

(٣) الإلياذة : ١٢ : ٢٤٣ .

كان اجائمنون إذن أقل شجاعة من اخيليوس وأقل مهارة من هكتور، ولكنه كان يحتل معهما المنزلة الأولى في الإلياذة، التي امتلأت بمواقفهم الرائعة وأعمالهم الخارقة .

ولم يكتف الشاعر بالكلام عن هؤلاء الأبطال فقط بل أحاطهم بشخصيات عديدة ابتكر معظمهم ابتكاراً ونوع في تصويرهم تنوعاً فأصبحوا يختلفون فيما بينهم اختلافاً شديداً ، كل منهم مستقل بذاته ويتميز بصفاته مع أنهم جميعاً يقومون بنفس العمل ويؤدون نفس المهمة .

وهم في مجموعهم قسمان : رجال حرب أو رجال سياسة ؛ ويذكر في طليعة المحاربين آياس وديوميديس ومنيلاوس ، وفي مقدمة السياسة نستور وأودوسيوس .

أما آياس فهو جندي لا يمتاز إلا بضخامة بنيانه وقوة بدنه يشبه الأسد في قوته والحمار في عناده فهو شجاع محدود الذكاء يستعمل أسلحة من طراز هائل ، درعه كالبرج وحرته طولها اثنتان وعشرون ذراعاً^(١)

أما ديوميديس فكان مثلاً حياً للقائد الشاب ، جريئاً غير هباب ، يتقدم إلى المعركة كالنهر المتدفق لا يستطيع أن يقف في وجهه أحد^(٢) . كان أول من قاد المعركة بعد انسحاب اخيليوس ، قاتل الطرواديين بشدة ولم يتردد في مهاجمة أنصارهم من الآلهة .

أما شخصية مينلاوس فكانت أقل قوة وإن كانت أكثر أهمية لأنه شقيق القائد الأعلى وزوج هيلينا الفاتنة ؛ ولكنه كان ، رغم أهميته ، بائساً مسكيناً ، فلا رأى له ولا اهتمام به لأن خيانة زوجته أضعفت

(١) الإلياذة : ١٥ : ٦٧٨ .

(٢) الإلياذة : ٥ : ٨٧ .

شخصيته وجردته من إرادته فسخر منه الأعداء ولقبوه « بالمحارب الناعم أو الجندي الرقيق » ،^(١).

أما نستور فكان سياسياً حنكته تجارب الماضي الذي كان يتعلق به ويشيد برجالاته ويكثر من ترديد أسمائهم . كان شديد الرأي عميق التفكير ، وكانت نصيحته تلقى من السامعين أذانا صاغية وقلوباً ترضى بها وتطمئن إليها . فنستور هو الذي حمل أجاممنون على طلب الصفح من اخيليوس واسترضائه بالهدايا لأنه أخطأ في حقه وكان عليه أن يعتذر . ونستور هو الذي عمل على إرجاع اخيليوس إلى المعركة بعد أن شرح الموقف لپاتروكلوس ورجاه أن يقنع صديقه بنسيان الإساءة وتلبية النداء . ولكن نستور كان ، رغم رجاحة عقله ، يثير السخرية أحياناً ، ولعل هوميروس قصد إلى ذلك لجعله إنساناً مثل كافة البشر ، كثير الكلام ، محباً لتقديم النصيح والإرشاد في أتفه المسائل ، مغرماً بالتحدث عن الماضي والإكثار من سرد القصص ، فعندما يتوجه پاتروكلوس ليسأل عن ماخاؤون الجريح ويحاول رؤيته على وجه السرعة ، يستوقفه نستور ويروي له حكاية قديمة لا نهاية لها ، وعندما يظهر في حفل الألعاب الذي أقيم لتعظيم پاتروكلوس قبل دفنه ، نراه ينصح ابنه ويحدثه حديثاً طويلاً منمقاً عن سباق العجلات ويشرح له كيف يستطيع إحراز النصر ولو بجياد غير أصيلة ، ثم يشترك ابنه في السباق ولكنه لا يفوز بالجائزة .

أما أودوسيوس فكان يمتاز بذكاء نادر ومهارة فائقة في مواجهة المواقف المختلفة والمآزق المخرجة ، اشتهر برجاحة عقله وبراعة خطفه لذا

اعتاد قواد الحملة أن يعهدوا إليه بأصعب المهمات ، فهو الذى أخذ على عاتقه إرجاع خروسيوس إلى أبيها كاهن ابوللون ، فتوجه إليه ورد إليه ابنته وأقام عنده الطقوس الدينية التى كان يتطلبها الموقف ونجح فى أداء مهمته ، وهو الذى ذهب إلى اخيليوس ليستعطفه ويسترضيه . حقا انه لم يوفق فى تحقيق مهمته ولكنه كان بارعاً فى التحدث بلسان أجاممنون والتعبير عن أفكاره ووصف حاله .

وكان ذكاء أودوسيوس يقتصر أحيانا على ابتكار حيلة أو الإلتجاء إلى خديعة ، فعندما يصارع أياكس الغي يمس فى أذنه ويطلب منه أن يستسلم ويعدده بأنه سيمثل نفس الدور ، فيصدق أياكس ويسمح له بأن يصصره ويلقيه أرضا ، فلما ينهض يتبين خديعة أودوسيوس الذى اخلف وعده وسخر منه .

ولقد حاول شاعر الإلياذة أن يشعرنا بأن لهذه الشخصية منزلة خاصة فى نفسه وأن صاحبها قريب من قلبه ، فنظم الأوديسا ليتغنى ببطولته ويمجد أعماله ، يقوم البطل فى هذه الملحمة بالدور الأول وهو دور إنسانى بكل معانى الكلمة ، يصور لنا رجلا يحب ويتألم ، يقاسى الأهوال وتنزل به المحن فيصمد لها ويصبر عليها من غير يأس وامستسلام ، ولقد حاول هوميروس أن يجعل أودوسيوس نموذجا صادقا ومثلا خالداً لليونانى الناضج ، فوصفه بالحنين وبعد النظر وميزه بالذكاء وسرعة الخاطر وخصه بالمشاورة والصبر وغرس فى نفسه حب الأهل والتعلق بهم ، فلم تشغله عن زوجه إلهة فاتنة (مثل كالوپسو)^(١) أو ساحرة عاشقة (مثل كركى Circe)^(٢) أو أميرة

(١) الأوديسا : ٥ : ١٤٨ — ٢٢٧ .

(٢) الأوديسا : ١٠ : ٢٧٤ — ٤٠٥ .

رائعة (مثل ناوسيكاً) ^(١) ، ولما حاولت الإلاهة أن تفتنه وتغريه على البقاء
رفض قائلاً : كالوپسو ، ايها الإلاهة المقتدرة ، لا تغضبي منى ، فأنا أعلم
تماماً أن پنيلوپا الحكيمة ليس لها جمالك ولا رشاقتك لأنها فانية ، أما أنت
فخالدة لن يصيبك الموت أو الكبر ، ومع ذلك فإنى أرغب دائماً فى العودة
إلى دارى وأتمنى يوم الرحيل ويوم الإياب ، ^(٢) . فما أشد إخلاصه لزوجته
وما أعظم حبه لوطنه الذى كان يفكر فيه دائماً ، لم تشغله عنه دجنات
كالوپسو الناضرة بأنهارها الجارية وأزهارها اليبانة وثمارها الدانية ، ^(٣)
لقد ضاق بهذا النعيم وسئم الحياة فيه ، فكان يقضى يومه جالساً فوق
الصخور أو على رمال الشاطئ ، وقد انفطر قلبه من الحزن والأنين
والبكاء ، ^(٤) وظل على هذا الحال أعواماً طويلة حتى عاد إلى وطنه ، وفور
وصوله نسى آلامه وغمره سرور عظيم فأنهال على تربة ايشاكا يقبلها ورفع
يديه إلى السماء داعياً الآلهة أن تطيل بقاءه وترعى ابنه وتساعدته فى التخلص
من أعدائه ليعمل على إنعاش الجزيرة ونشر السلم فى ربوعها .

(١) الأوديسا : ٨ : ٤٥٨ — ٤٦٩ .

(٢) الأوديسا : ٥ : ٢١٥ وما بعده .

(٣) الأوديسا : ٥ : ٦٠ — ٧٥ .

(٤) الأوديسا : ٥ : ١٥٥ وما بعده .

٣ - النساء

عنى هوميروس بتصوير المرأة وحرص على أن تحتل في شعره منزلة سامية ، فحدثنا عن نساء ذائعات الصيت ، وأسند إليهن أدواراً هامة ، أو قل أهم من أدوار بعض الأبطال ، فهلينا في الإلياذة أخطر شأنا وأقوى شخصية من عاشقها باريس وزوجها مينلاوس ، واندروماخا مثل رائع للزوجة المثالية وپنيلوپا في الأوديسا لا تقل أهمية عن زوجها .

اهتم الشاعر بتصوير هؤلاء النساء وتحليل شخصياتهن واسهب في الكلام عنهن وعن مثيلاتهن خاصة في الأوديسا^(١) التي نظمت ، في رأى بعض النقاد ، تمجيد المرأة^(٢) بعد أن نظمت الإلياذة لتمجيد الرجل . ومهما يكن من أمر هذا الرأى فإن كل بطلات هوميروس جديرات بالدراسة لكن أشهرهن ثلاث : هلينا واندروماخا وپنيلوپا .

كانت هلينا أجمل نساء العالم القديم ، عشقها كل رجال اليونان وتغنى بحسنها كل أدبائهم الأصدقاء منهم والأعداء^(٣) . فليس بعجيب إذن أن

(١) لذلك يرى بعض النقاد أنها من نظم شاعرة ، انظر ،

Mackail (J. W), Penelope in the Odyssey, Cambridge, 1916,p.6

(٢) لا شك أن المرأة تلعب دوراً مهماً في الأوديسا وأن النساء المشهورات فيها أكثر

من الرجال لكن ذلك لا ينهض دليلاً على صحة هذا الرأى ، انظر :

Mackail, ibid.

(٣) انقسم الأدباء قسمين : فريق يدافع عنها ويتغنى بجمالها وفريق يهاجمها ويندد بأخلاقها ، انظر :

Khataga (M.S.), 'Absolutio Helenae. The Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University, Vol. XIV, Part, I May 1952-

تنشب الحرب وتدمر طرواده من أجل جمالها ويقاسى الفريقان الأهوال بسببها كما اعترف بذلك ملك طرواده وشيوخها ^(١) .

ولقد برع هوميروس في تصويرها ، فبدت لنا شريفة طاهرة لأنه أمسك عن ذكر خطيئتها وامتنع عن وصفها ولم يشرح لنا كيف تم اختطافها وهل رحلت مع باريس لأنه فتنها أم أعرضت عنه فاغتصبها ، لقد انزم الشاعر الصمت ولم ينطق كلمة سوء ضدها بل دافع عنها دفاعاً مجيداً واقنع زوجها بأنها بريئة غير مذنبه فاعترف منيلاوس بأنها لم تسء إليه وأدان باريس واعتبره مسئولاً عن الجرم الذى وقع ^(٢) . وبنيلوبا نفسها ، رمز الطهر والوفاء ، كانت تعتقد أنها لم تكن تفكر مطلقاً فى خيانة زوجها لولا أن إلهة عبثت بقلبها واضرمت فيه شهوة مخزية .

كانت هيلينا إذن غير مذنبه لأن افروديتا هى التى أسكرتها بخمرة الحب وأعمت بصرها ، فلما أفاقت من نشوتها ندمت على فعلتها وأخذت تصف نفسها بأبشع الصفات ^(٣) وأصبحت تتمنى الموت بعد رحيلها وتفكر فى العودة إلى وطنها والرجوع إلى زوجها وطفلتها وتقول : « ياليتنى قد هلكت عندما جئت إلى طرواده وهجرت زوجى وتركت ابنتى » ^(٤) .

ولقد نجح الشاعر فى أن ينسينا كل ما أساء إلى سمعتها ويقنعنا بحسن

(١) الإلياذة : ٣ : ١٥٦ وما بعده : « يجب ألا نحزن إذا قاسى الطرواديون والآخيون الآلام بسبب امرأة مثلها ، جميلة المحيا شبيهة بالآلهة » .

(٢) الإلياذة : ٣ : ٢٩ ، ٣٥١ — ٣٥٤ .

(٣) الأوديسا : ٢٣ : ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٤) الإلياذة : ٣ : ١٨٠ ؛ الأوديسا : ٤ : ١٤٥ .

(٥) الإلياذة : ٣ : ١٧١ وما بعده .

سيرتها فأظهرها في آخر نشيد من أناشيد الإلياذة وصورها تصويراً جميلاً
فبدت سامية العواطف ، رقيقة القلب ، حزنت على هكتور ورثته بعبارات
تدل على صدق شعورها وتعبر عن تقديرها له : د هكتور ، يا أعز أشقاء
باريس إلى ، إني لا أذكر لك كلمة نابيه أو لفظاً لاذعاً ، وإذا لامني أحد
من أفراد القصر كنت تتصدى له وتمنعه بكلامك الحلو ونصحك السديد ،
لذا انوح حزناً عليك وأبكي على نفسي لأنني مسكينة بائسة لن أجد
بعدك صديقاً يرعاني ويعطف عليّ ، (١)

حزن عميق هادئ وعرفان بالجميل من غادة وقور لا من فاتنة لعبوب ،
من هيلينا التي قارنها هوميروس بالآلهة الظاهر أرتيمس (٢) وارجعها في الأدويسا
إلى بيت زوجها فحقق رغبته التي استبدت بها بعد اختطافها .

وكما تغنى شاعرا الإلياذة بجمال هيلينا وسحرها ، فإنه خلد اندروماخاوا شاد
بحبها لزوجها وابنها فأصبحت رمزا للزوجة المثالية والأم الروم . لم يحدثنا
هوميروس عن جسمها ولم يسهب في الكلام عن أخلاقها وتركها تؤثر فينا
بأعمالها وتطبع في نفوسنا صورة لا ننساها . كان هكتور يحبها ويفكر فيها
دائماً ، كان يسعى إليها قبل كل معركة ليودعها ، وكانت كلما رآته طلبت
إليه أن يعدل عن القتال لأنها كانت تخاف عليه وتقول له : يا إلهي إن
الحماسة ستقضي عليك ، انك لا ترأف بي ولا بإبنك ، سأفقدك عندما يقتلك
اليونان ، ولكني أفضل أن تنشق الأرض وتبتلعني قبل أن تموت ، لأنني
لن أجد متعة في الحياة من بعدك ولن أعرف إلا الحزن والألم ، لقد فقدت
بي وأمي ، فأنت يا هكتور أبي وأمي ، وأنت زوجي ، اشفق على اذن

(١) الإلياذة : ٢٤ : ٧٦٧ وما بعده .

(٢) الأدويسا : ٤ : ١٢٢

وابق معي ، (١) ولكنه لا يستجيب لتوسلاتها لأنه بطل طرواده الذي يدافع عنها ويحميها ولأنه زوج اندروماخا الذي يحبها ويفديها ويفضل أن يموت دفاعاً عنها على أن يحيا ويراهها أسيرة عند اليونان ، لذا يرد عليها قائلاً : « زوجتي إن كلامك يحزنني لكن قلبي يدفعني إلى المعركة ، لقد تعلمت أن أكون شجاعاً على الدوام وأن أقاتل في الصفوف الأولى لأذود عن ملك أبي وأشيد مجدي ، ومع ذلك فأنا لا أفكر في مستقبل طرواده وأحزانها . بقدر ما أفكر فيك عندما تقعين في الأسر وتذرفين الدمع وتضطرين للعيش في بيت أحد الأخيين تنسجين له وتحملين الماء ، فيراك الناس ويقولون : انظرها هي زوجة هكتور أعظم من حاربوا حول أسوار طرواده — ، وعندئذ تتجدد أحزانك وتشعرين بحاجتك لزوج مثلي يدفع عنك ذل الاستعباد » (١)

وتحققت نبوءته ! فمات بينما كانت تأمر بإعداد حمام ساخن له ليغتسل بعد المعركة ، أمرت وصيفاتها وجلست تغزل وتنتظر عودته ولكنه لم يعد أبداً ... وسمعت عويل هيكوبا ونحيبها وسمعت بكاء وصراخاً عالياً يأتيها من فوق الأسوار ، فخارت قواها وأصابها دوار ولكنها تحاملت على نفسها وأسرعت إلى هناك واطلّت فرأت حبيبها جثة هامدة تجرها الخيل ، فأصابها ذهول وغابت عن نفسها ، ثم استردت أنفاسها واسترجعت قواها لترثي زوجها وتقول : « ما أشقائي ياهكتور ! ليتني لم أرلد ، لقد ذهبت إلى عالم الموتى وتركتني في يأس وقنوط ، وهذا الطفل الذي رزقناه ! حتى لو نجنا من هذه الحرب المريرة ، فإنه لن يعرف السعادة أبداً ، ستنزل به المصائب وسيغتصبون أرضه بعد أن أصبح يتيماً ذليلاً . وإذا احتاج شيئاً ذهب

(١) الإلياذة : ٦ : ٤٠٦ وما بعده .

إلى أصدقاء أبيه ، يمسك هذا من معطفه ، ويشد ذاك من ثوبه ، فيتأثرون لحاله ويتصدقون عليه بما يبل شفتيه ولا يسد رمقه . آه ! ما أشقاه أستيناكس Astyanax ، ذلك الطفل الذى كان يجلس على ركبتى أبيه ولا يأكل إلا اللضآن ونخاعه وكان ينام بين ذراعى مرضعته فى فراش وثير !^(١) .

تلك لوحات رائعة هادئة تصور لنا أندروماخا ، وهى ، رغم قلتها ، عميقة الأثر لأنها تحلل نفسية هذه الزوجة تحليلاً مفصلاً وتعبر عن مشاعرها تعبيراً صادقا وتصف تفانيها فى حب زوجها وإبنها ، لقد حاولت مراراً منع هكتور من الذهاب إلى ساحة الوغى لأنها كانت تخاف على حياتها ، فلما ضاعت توسلاتها سدى لم تعد تملك إلا الدعاء له فلما فجعت فيه بكته بكاءً مرأً ، لكن الفجيعة لم تنسها التفكير فى مصير ولدها فازدادت همومها عندما تصورت ما ينتظره من بؤس وشقاء ، وبذا قضت أيامها الباقية فى حزن وألم ، تنوح على الزوج المفقود وترثى لحال اليتيم المحروم فصارت مثلاً للنفانى واعتبرها النقاد أكثر نساء هوميروس نبلا وأقواهن تأثيراً واحبهن إلى النفس ،^(٢) .

وليست نيلوبا أقل جلالة إن لم تكن أكثر أهمية لأنها بطلة الأوديسا وأخطر نساءها شأنًا ، وأشد من تألقا وأرجحن عقلا ،^(٣) . تظهر فى أول نشيد ولا تفارق مخيلتنا لحظة ، فإذا اختفت عن أعيننا ، مرطيفها أمامنا وأثر فينا تأثير النغمات الموسيقية ، وكلما تعمقنا فى الموضوع شعرنا بأهمية دورها وسعة حكمها ،^(٤) . وهى تشبه أندروماخا فى حبها لإبنها ووفائها

(١) الإلياذة : ٦ ، ٤٤٠ وما بعده .

(٢) الإلياذة : ٢٢ ، ٣٧٨ وما بعده .

(٣) كلما ذكرها هوميروس فى الأوديسا وصفها بالحكمة الزائدة (periphron) والتألق

الشديد (dia)

لزوجها الذى أضطر إلى تركها فى ريعان الشباب وعاد إليها وقد قاربت الأربعين ، وبذلك قضت زهرة العمر محرومة من كل سعادة وهناء : حبيبها غائب عنها وإبنها طفل رضيع ومسئولياتها جسيمة ، فعلمها أن تقوم بأعمال زوجها وتشرف على شئون بيتها ، وبعد ذلك تقضى أوقات فراغها مع طيورها (١) لأنها لم تجد لها صديقة تشكو إليها همها ، وبقيت وحيدة تحسب الأيام والسنين وتعيش بالأمل ولكن لما انتهت حرب طرواده ولم يعد أوديسيوس دب فى نفسها يأس يميت وضائق بالحياة لأن العشاق بالغوا فى مضايقاتهم لها ، وزاد الموقف تعقيداً بنسج إبنها وبلوغه سن المراهقة فأراد أن يثبت وجوده وبدأ يتحدى سلطتها ويخرج عن طاعتها .

لكن هذه المشكلات نفسها صهرت بنيلوپا وعجمت عودها وخلقت منها سيدة فاضلة وملكة حازمة فبقيت وفية لزوجها ثابتة على عهدها ، ولما حاول العشاق إغرامها ، بالترغيب أو بالتخويف ، قاومتهم مقاومة عنيفة بالتسويق والخداع وزادها النضال معهم تمسكاً بكرامتها ومحافظة على مكانتها ، فقامت فى غياب الملك بدورها خير قيام ، سيطرت على القصر ولم تتخل عن شئ من سلطتها لآى من العشاق ، لأنها كانت قوية الشخصية ولأنها كانت تؤمن إيماناً شديداً بأن بيت الزوجية هو كل شئ فى حياتها يجب أن تبقى فيه وتحافظ على كيانه لأنها رشفت فيه كثوس الحب مع حبيبها ولأنها تسترجع فيه كل ذكرياتها . فكيف ترضى به بديلاً : ، إنه جميل للغاية ، مملوء بمباهج الحياة وطبيعتها ستذكره دائماً ولو فى الأحلام . . لقد قررت ألا تتركه برغبتها ونجحت فى تنفيذ قرارها بفضل ما كانت عليه من دهاء وبعد نظر وهما أشد صفاتها وضوحاً ، قد تضيق بهما أحياناً عندما

(١) كانت نسلتها المفضلة وكانت تعنى بها عناية شديدة ، الأوديسا : ١٩ : ٥٣٧ .

ينقلبان إلى حذر شديد وتشكك مخيف . وأقوى دليل على ذلك موقفها من زوجها بعد عودته ، فبعد أن قضى على أعدائه وأكدت لها الخادمة أنه أودوسيوس ، تشككت بنيلوپا في كلامها وأرادت أن تمتحن الغريب وتتعرف عليه بنفسها ، فثار لذلك إبنها ووصفها بقسوة القلب وتحجرة ، ^(١) ولكنه كان مبالغاً فيما ذهب إليه لأنها ما كادت تتأكد من وجود أودوسيوس أمامها حتى انفجرت باكية . وعانقته عناقاً طويلاً وطلبت إليه الصفح عن إحجامها وجمودها وقالت : « لا تغضب مني ، يا أودوسيوس ؟ لقد كتب علينا البؤس عندما فرقتما الآلهة وضنت علينا بالسعادة والهناء وحرمتنا أن نعيش معا حتى نبلغ الكبر ، لا تغضب مني ولا تلمني لأنني لم أعانقك عند رؤيتك ، فقلبي كان يخاف دائماً خداع المنافقين ، أما الآن فقد إطمأن إلى أدلتك التي لا جدال فيها ، ^(٢) »

لم تكن إذن قاسية القلب ولكنها كانت تغالى في الحذر خوفاً من الشباك التي كانت تنصب حولها ، يضاف إلى ذلك أن حبها لزوجها وعطفها على إبنها وإكرامها لوصيفاتها وتشجيعها للشحاذ الغريب يدل على رقة عواطفها ونبل مشاعرها . ومع أن هوميروس لم يحدثنا عن دلالها وجمالها إلا أننا نفهم من إشاراتهِ العابرة أنها كانت « خمرية اللون ، ممشوقة القد ، جذابة خفيفة الروح ، رقيقة اللفظ فتنت العشاق وجعلتهم يتفانون في خطب ودها ويتسابقون إلى الزواج منها ، ولكنها خيبت ظنهم لأنها كانت تحب زوجها الذي انتظرته عشرين عاماً أو يزيد ، فصارت مثلاً للحب والوفاء ..

تلك نماذج من أبطال هوميروس ترينا أنهم كانوا أشخاصاً حقيقيين، يرتبطون

(١) الأوديسا : ٢٣ : ٩٧ .

(٢) الأوديسا : ٢٣ : ١٥٣ وما بعده .

بالحياة ارتباطاً وثيقاً ، يتصفون بصفات البشر ويشعرون بمشاعرهم ، كرماء يراعون حقوق الضيافة ويقدمونها حتى مع أعدائهم^(١) . يتميزون في الإلياذة بالقسوة والغلظة خاصة مع نساءهم فنراهم لا يحترمون وجودهن ولا يعترفون بحقوقهن ، يحدون من حريتهن ويفرضون عليهن الحجاب ويعتبروهن ربات بيوت خلقن لخدمة الرجال والأبناء ، ولكن الأيام أثبتت خطأهم واضطرتهم إلى تغيير آرائهم ، فنجدهم في الأوديسا يحترمون المرأة ويحسنون معاملتها .

ولقد امتازت نساء هوميروس — حتى هيلينا — بصدق العواطف ونبل المشاعر ، فكلهن مخلصات محبات لرجالهن ، متفانيات في حب أولادهن ، مؤمنات بحقوق الزوجية ، بعكس الأبطال الذين كانوا يميلون إلى تعدد الزوجات ويفاخرون بكثرة الأبناء .

وكان هؤلاء الأبطال عاطفيين في أغلب تصرفاتهم ، لذا كان من السهل استئثارهم ومن السهل استرضائهم ، إذا غضبوا تبادلوا الشتائم المقذعة والألفاظ اللاذعة ، فأعظمهم شأننا ينساق وراء هواه ويفقد صوابه ويثور في وجه أجامننون ويسبهه ويصفه ، بأنه كلب ذئب ، ووغد صفيق ، وإذا اعتدى عليهم معتد فويل له من الانتقام الشديد . ولقد رأيت من قبل كيف تجرد اخيليوس من إنسانيته ، ونكل بجثة عدوه وأمر الجنود بركلها ، ولولا خوفه من غضب الآلهة لرمها ، للكلاب تمزقها وتنهش أحشاءها .

ولكن هؤلاء العاطفيين كانوا يعرفون أن تحكيم العقل أفضل وأن كلمته أقوى لذا كانوا يلجئون إليه ليعيد إلى نفوسهم الهدوء والطمأنينة ويبعث في قلوبهم الاعتدال والاعتزان ، فكثيراً ما يمتدحون الرقة والمرونة

(١) الإلياذة : ٦ : ١١٩ — ٢٣٦ .

ويكرهون الجمود والصلابة ^(١) ويعترفون بأن خير الأبطال من يسيطر على نفسه ولا يخضع لأهوائه ^(٢) . وأن احترام العدو والعطف عليه دليل على الأمانة والاستقامة ^(٣) وأن الغدر والخيانة يتنافيان مع الشرف والشهامة .
هذه الصفات وتلك التصرفات تشهد بأنهم لا يمتنون إلى الآلهة بصلة ولا يختلفون عن الناس في شيء . وكيف يختلفون عنهم ، وهم يخافون بهش القدر ويستسلمون لقضائه ويشكون بؤس الحياة ويخافون من الموت ، .

(١) الإلياذة : ١٩ : ٢٩٥ : ٢٣ : ٥٥٥ .

(٢) الإلياذة : ٩ : ٩٧ : ١٥ : ٢٠٣ .

(٣) الإلياذة : ٢٢ : ١١١ : ٢٤ : ٤٥٢ .